

مسئولية

الاحتلال الانجليزى لمصر

للاستاذ كمال السيد درويش

- ١ -

في مثل هذا الشهر من عام سنة ١٨٨٢ تم الاحتلال الانجليزى لمصر . ذلك الاحتلال الذى لم تسترق حوادثه - منذ ضرب الاسكندرية في الحادى عشر من شهر يولييه الى استسلام عرابى بالقاهرة في الرابع عشر من شهر سبتمبر - سوى شهرين اثنين . ولوقفة التل الكبير أهميتها الخاصة بعد تحصينات كفر النوار في حوادث ذلك الاجتلال مع أنها لم تدم سوى عشرين دقيقة فر بعد عرابى إلى القاهرة ليستلم في اليوم التالى . ولقد دعت السهولة التى تم بها الاحتلال الانجليزى لمصر إلى الاختلاف حول تحديد المسؤولية في ذلك الاحتلال . أتقع

في البلدين ، أما السفير الأميركى فاكثف بأن قرأ على مجموعة من برقيات واشنجتون وكلها تشرح وجهة النظر الأميركية التى تत्मك بخصوص نظام ميثاق الأطلنطى وأنه يجب كل ما يمكن . ولا لزوم لمقد مثل هذه الماهدات : ومن هنا فهمت سر التطور الجديد ضد فرنسا .

كثرت مقابلاتي في شهر مارس سنة ١٩٤٣ مع الجنرال كاترو وتناولت أحاديثي منه عدة مسائل كان بعضها خاصاً بمركز القوات الفرنسية وممكراتها في مصر . وفي إحدى هذه المقابلات أشار إلى المتاعب التى يلقاها لجمع شمل رجال السياسة السوريين وقال إنه دائم الاتصال بهم ومحاول جهده التئيب على الصاعب التى تبرز كل يوم أمامه . وكان مما ذكره أن مودة المستور والحياة النيابية إلى سوريا ولبنان أمر مقروخ منه ، وهذا تنفيذ لما تم الاتفاق عليه بالقاهرة ، ذلك الاتفاق الذى اعتبره الجنرال خاصاً به ، ولما قد بذل الجهود حتى أُنشع الجنرال ديمبول ولجنة الفرنسيين الأحرار ، حتى واقفوا على تنفيذه ، وأن الشروع الذى أوجت به مصر يد في نظره الحل الوحيد المطابق لروح المبادئ الدستورية ، ولذا فهو

المسئولية على عاتق عرابى أم على عاتق الدولة المانية أم على الانجليز وجشهم الاستعماري ؟

وهكذا تأرجحت آراء الكتاب حول هذا الموضوع بين هذا الرأي أو ذاك .

عرابى هو المسئول الأول والأخير . لقد اعتمدت بعض الكتاب هذا الرأي وأيدوه بحجج قوية .

ألم يدفع سلوكه الخديو إلى الارتقاء في أحضان الانجليز ؟ ألم يهمل الدفاع عن حدود مصر الشرقية ؟ أما كان من الحكمة أن يلجأ إلى سد القناة فيؤخر الزحف الانجليزى على الأقل إن لم يمتعه ؟ يقول له دلبس في تلترافه : « إن الانجليز يستحيل أن يدخلوا القناة ، يستحيل » فينصنع بهذا التلتراف وبالتلتراف الذى يليه : « لا تعمل عملاً ما لسد قناة ، فاني هنا ولا تخش شيئاً من هذه الناحية ، إذ لا يتزل جندي إنجليزى واحد إلا ويصعبه جندي فرنسي ، وأنا المسئول مع كل ذلك » .

أى قائد هذا الذى يصدق مثل هذا التصريح الأجوف فيركن إليه في تحسين بلاده ؟ ألم يقل فيه مديقه جون نيينه « إن بساطة

الذى يسعى أن ينفذه في كل من سوريا ولبنان على السواء . وعند اقتراب انصرافى أسر إلى بأن مركز فرنسا ودية في يده وقتك فإنه سيحفظ بالمصالح المشتركة لحين التناغم على معاهدة التحالف بين البلدين . ولم أعلق على هذا التصريح بشيء علماً بأن الظروف قد بدأت تسير في اتجاه آخر مضاد لفكرته ، وإن أساليب السياسة البريطانية قد بدأت تتوغل أكاماً في كل من سوريا ولبنان وتوجه القادة إلى وجهة نظرهما .

وفي ١٣ مارس سنة ١٩٤٣ علمت من عدة مصادر أن الجنرال كاترو لم يمد يتعرض بتاتاً لمعاهدة ١٩٣٦ في أحاديثه مع الساسة السوريين ، وظهر أن هذا كان نتيجة إبداء البريطانيين امتناعهم . ولكنى علمت بأن شكوى بك القوتلى مصر على رفض رئاسة الوزارة إذا عرضها عليه هاشم بك الأمانى . ولما أشير إلى خالف بك العظم أجمع الساسة على أن صحته سوف لا تمكنه من مواجهة الحالة القادمة وما تتطلبه من كفاح ومجالة أمام مجلس النواب . وهنا بدأت المفاجأة الثانية .

أحمد رمزي

(ينبع)

يوم واحد وهو وقت لا يمكن لتعرف مواقع القتال ووضع الخطط المسالمة .

وكيف لا يشتم راحة الحياة في صفوف أعوانه ١٢ أرمم خطة الموقعة ليلا فلا تستقر في نفس الليلة إلا عند الأعداء ١٣ ويتحرك الجيش الإنجليزي إلى أن يصل إلى ميدان الموقعة مسافة تبلغ نحو خمسة عشر كيلومتراً دون أن تصادفه طلّاح المصريين ؟ أوقع الإنجليز بالجند « على حين كان راقداً فدهشت الساكن وتولاهم الانذهال حيث رأوا ضرب النار من خلفهم وأمامهم ، فأتفوا أسلحتهم وفروا طالين النجاة » على حد قول عرابي نفسه في روايته عن تلك الحركة .

وأخيراً كيف يرتضى عرابي لنفسه أن يرعى لفرضه الثمان ثم يستسلم بعد فراقه هذا الاستسلام القليل ؟ لقد قال الراقى بك في هذا الموقف الذي ختم به عرابي فصول الثورة : « ولكن عرابي آثر الحياة على الواجب المقدس فقدر روح البطولة والتضحية ، ولم يكن هذا عهداً للأمة قبل نشوب الحرب ، فقد كان يقول إنه لا يخشى تهديد إنجلترا ولا أوروبا ولا تركيا وإنه مصر على أن يدافع عن مصر حتى آخر رمق من حياته . فليت شمري لم لم يف بمهده فيكون دفاعه على الأقل صفحة بطولة في تاريخه وفي تاريخ مصر » أما إذا كان مستمراً التسليم لجرم المذبحة فكان الأولى به أن لا يُشامر بالبلاد في حرب أدّت إلى الاحتلال والموت ، فهزيمة التل الكبير لم تكن هزيمة عرابي وحده أو هزيمة لجيشه بل هي هزيمة مصر بأسرها إذ كانت نتيجة الاحتلال البريطاني (١) بل لقد ذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك في تفسير قرار عرابي فقال إنه لم يفر من الموقعة ليواصل الجهاد ولكن لكي ينجو بنفسه ؛ ولو كان مجاهداً حقاً لظلّ يجاهد حتى آخر نسمة من حياته . أفلا يرى القاري العزيز إلى أي حد يذهب بعض الكتاب في إلقاء مسئولية ذلك الاحتلال المشؤم على عاتق عرابي والبرابيين ؟ إن الاتهام تلو الاتهام ينصب في غير رحمة أو هوادة على البرابيين وعلى رأس عرابي بالذات .

ولكن مهلاً أيها القاري العزيز فسنستعرض بقية الآراء حتى نشتر على الحقيقة في ثنايا ذلك الاستعراض فتسكون الحقيقة

عرابي جعلته يرتكب أخطاء كبيرة ظهرت عواقبها بعد ، فبقدر ما بذل من الهمة في الدفاع عن الإسكندرية وتحصين خطوط الدفاع في كفر الدوار بحيث امتنعت على الإنجليز ، قد أظهر منذ ابتداء القتال غفلة بالغة إذا استمع إلى النصائح الكاذبة التي خدعه بها السيوف فربنا دليس حين زعم أن الإنجليز لا يمكن أن يتمرصوا للعمل الفرنسي ، فامتنع عرابي عن سد القناة في الوقت المناسب واستمسك برأيه رغم ما كانت تحتمه الخطط القتبية الحربية ، ورغم ما ارتآه ضلّاء وما ارتآته أنا وكررت عشر مرات تارة بالقول القارس وطوراً بالكتابة في وجوب سد القناة ؛ ورغم كل ذلك أصرّ عرابي على رأيه فهدد للجنرال وللى نصرأ من أسهل ما عرف في تاريخ المارك (٢) . ويحذره جون بينيه قائلاً : « إن قناة السويس هي خط الدفاع الوحيد الذي لكم في هذه للناحية ، وإذا لم نحتلوه فيحتله العدو فهدأ ولن يجد صعوبة في احتلاله » (٣) ومع ذلك كله يأبى عرابي إلا أن يصرّ « أدنيه ويقف مكتوف اليدين حتى تسأل كاتب تاريخ الحركة القومية بقوله : « فليت شمري ما الذي جعله يبدل عن هذا الرأي الصواب ويمتنع عن سدها حتى احتلها الإنجليز ؟ » (٤) وموقعة التل الكبير ! كيف يخوض تلك الموقعة القاسية وهو بعد لم يستكمل وسائل الدفاع ؟ لقد أقيمت خطوط الدفاع على عجّل ، ولم تكن هي في ذاتها بحكمة الوضع . يقول السمر بلنت في التاريخ السري للاحتلال : « إن جيش عرابي بالتل الكبير لم يكن يزيد على عشرة آلاف أو اثنين عشر ألف جندي ، والباقي كانوا من المجندين الأحداث الذين لم يسبق لهم إطلاق بندقية واحدة . أضف إلى ذلك أن خيرة الجنود لم يكونوا بالتل الكبير بل كانوا في كفر الدوار أو في دمياط ، وهؤلاء لم يشتركوا قط في الحركة ، وكان من حسن التدبير أن يستدعى عرابي على الأقل الأتلي الم رابط في دمياط لأنه كان يحتوي على خيرة الجند المدربين ، ولكنه لم يفعل . بل لقد عهد عرابي بالقيادة إلى علي باشا الروي فحضر قبل الواقعة

(١) الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي . عبد الرحمن الراقى

م ٤٣٢ نقل عن جون بينيه — عرابي باشا م ١٠٥

(٢) عبد الرحمن الراقى بك . الثورة العربية م ٤٣٣ : خلا من

جون بينيه عرابي باشا م ١٠٥

(٣) عبد الرحمن الراقى بك . الثورة العربية م ٤٣٣

(٤) عبد الرحمن الراقى بك . الثورة العربية . م ٤٥٦ ، ٤٥٧

ومؤتمر الآستانة مع ذلك موجود ولا يستحي المندوبون فيه من مواصلة عقد الجلسات بعد أن تم ذلك العدوان ؟

ألا تكون الدولة العثمانية مسئولة عن هذا الاحتلال وهي التي مكنت - سواء بضعفها أو غفلتها أو جودها - من التدخل الإنجليزي باسمها وباسم الخديو ؟

كيف ترضى الوقوف في جانب الإنجليز - وهي تعلم سياساتهم ونيتهم فتؤيدهم بنفوذها الروحي والسياسي ومجاريها في ذلك الخديو فيطمح الحركة الرايية في الصميم بإيقاع الانتقام بين رجالها وبالتالي في القضاء عليها ؟ كيف ترضى الدولة لنفسها هذا الموقف العجيب فتؤيد دهاقنة الإنجليز ضد عرابي - عرابي الذي كانت تعلم حق العلم حقيقة نواياه وأطماعه . أليس من العجيب أن يكون عرابي من المخطورة على الدولة العثمانية وعلى الخديو بحيث يضطرها إلى الاستعانة بالإنجليز في القضاء عليه ؟ أما كانت الدولة العثمانية بتصرفها هذا كالاستجير من الرمضاء بالنار ؟ والله يعلم أن حركة عرابي والراييين كانت على الدولة وعلى مصر أبديت من عن الرمضاء ، وأن الإنجليز كانوا على البلاد وعلى الدولة أشد خطراً من النار .

ألم يكن موقف الخديو من الحركة الرايية معولاً قوياً من حاول هدمها ؟ كتب الخديو إلى الأميرال سيمور بعد ضرب الاسكندرية يقول على لسان رئيس وزرائه : « كوثوا إذن على علم بأن الجناب الخديو عزم على عزل عرابي من وظيفته ، فهو لذلك وحده المسئول عما يحدث » ويرسل الخديو تلغرافاً إلى عرابي بكفر النصارى بأمره بالكف عن الاستمدادات الحربية ويؤيد بذلك وجهة النظر الإنجليزية في ضرب الاسكندرية « اعلوا أن ما حصل من ضرب المدافع من القذائف الإنجليزية على طوابق الاسكندرية إنما كان السبب فيه استمرار الأعمال التي كانت جارية بالطوابق وتركيب المدافع التي كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير إختافها وإنكارها » ثم يمزله في النهاية « لقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية ، وأصدرنا أمراً هذا لكم بما ذكر ليكون معلوماً » ويكتب الخديو بعد ذلك منشوراً إلى الأمة يحضرها فيه من الانضمام إلى عرابي وإلى مناصرة الجيش الإنجليزي والانتفاع من مساواة الراييين .

والحقيقة وحدها سبيلنا إلى تحديد المسئولية والمسئولين وحتى نستطيع استخلاص العبرة من تاريخ ذلك الاحتلال .

٣ -

لا ، ليس عرابي هو المسئول . ولكن المسئول الأول والأخير هو الدولة العثمانية . تلك الدولة التي دب الضعف والانهلال في جميع أرجائها فاستعنت بذلك لقبها المشهور « الرجل المريض » ألم تقف الدولة العثمانية عقبة كؤوداً في سبيل نهوض مصر ؟ ألم تحمل السياسة العثمانية على إبقاء مصر ضعيفة ظناً منها أن هذا الضعف هو الوسيلة الوحيدة لبقاء مصر داخل نطاقها ؟ ثم هذا الموقف المضحك المزرى الذي وقفته إزاء الثورة الرايية ؟ كيف ترضى لنفسها الاشتراك في غثلية مؤتمر الآستانة ؟ وبأي حق تسمح للدول الأوروبية أن تقحم أوفها فيما لا يمتنها ؟ وكيف تنخدع هي الأخرى بهذا المؤثر وبسراب الخطب التي ألتبت فيه ؟ يضع مندوبو الدول في هذا المؤتمر ما أسموه : « ميثاق النزاهة » وفيه تتعهد الحكومات التي يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها في كل اتفاق يحصل بشأن المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أي جزء من أراضي مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجاري . . الخ »

أحقاً هذا ؟ أحقاً ينخدع الباب العالي ويؤمن بنزاهة الميثاق وتضع السياسة الإنجليزية في انحياز غلب للقط أثناء الاحتلال . خطب اللورد دفرين سفير إنجلترا وممثليها في المؤتمر فرفض لتفاصيل الحالة في مصر قائلاً : « إن وزارة رانغ باشا هي أمانة في أيدي الثائرين ، وأن الخديو لا حول له ولا قوة . ثم أهاب باللورد أن تأخذ الثورة المصرية - على حد قوله - بالشدة حتى لا يستعمل نفوذها فلا يعود من السهل استئصال شأقتها . وقال إن الوسائل القسالية التي يجب اتخاذها لإعادة حكومة منتظمة إلى مصر يجب أن تصدر عن الحضرة السلطانية .

وعكذا نجحت إنجلترا في إقرار مبدأ التدخل في شئون مصر الداخلية . بل إن جهود القولة العثمانية كانت سبباً في تمكين الإنجليز من التدخل بفردم بعد أن خلقوا « الحالة القهرية » التي استدعت في زعمهم ضرب الإسكندرية .

ألم تكن مهزلة المأزق أن يتم ضرب الاسكندرية واحتلالها